"المستشرقون والدراسات القرآنيّة"

للدكتور محمد حسين علي الصغير (رحمه الله)

◆ الأستاذ محمد بنعمارة[1]

■ **خلاصة**

في هـذه القـراءة، محاولة لتسـليط الضوء على أهم مـا تضمّنه هذا الكتاب القيـم، من عرض ونقد وتحليل لأهم الدراسـات والكتب الاسـتشراقية التي تناولت القرآن الكريم، والجهود المعرفية والبحثية التـي بذلها المسـتشرقون في أوروبا على وجه الخصوص، في تعاطيهم مـع القرآن بخصوص: تاريخ القرآن، الوحي، ترجمة القرآن، التحقيق والفهرسـة والتدوين..إلخ. وقد كشف المؤلف عن الخلفيات والدوافع الدينية والسياسية والأيديولوجية التي تحكمت في توجيه هذه الدراسات، ما جعلها تبتعد في أحيـان كثيرة عن العلمية والموضوعية، وتقـع في أخطاء علمية متعددة.. كما ناقش الكتاب الكثير من الشُّـبهات التي روّجت لها الكتابات الاسـتشراقية المتعلقة بالقرآن، وردَّ عليها بمنهجية علمية، كاشفًا عن تهافتها على جميع المستويات، خصوصا ما يتعلق بتصورهم للوحي، ومحاولاتهم ترجمة القرآن.. كما أشـاد المؤلف بالجهود العلمية المحترمة التي بذلها المسـتشرقون في مجال التحقيق والفهرسـة والتدوين، وكذلك الدراسات التي عالجت موضوعات قرآنية خاصة..

الكلمات المفتاحية: القرآن- الاستشراق- المستشرقون- الوحي- ترجمة القرآن- الدراسات القرآنية.

1 - باحث متخصص في الدراسات الإسلامية - تونس.

مقدمة

يُعدّ القرآن الكريم دستور الرسالة الإسلاميّة الخالدة، ومصدر التشريع الأوّل، به شيّدت الحضارة الإسلاميّة أُسسها ولا زالت مستمرة على هديه. وهذه المكانة المميّزة للقرآن الكريم، جعلته محور اهتمام المسلمين وغيرهم. فقد أَوْلى الباحثون الغربيون اهتمامًا بالغًا به، واختلفت غاياتهم في ذلك، بين باحث عن المعرفة، وبين ساعٍ للتبشير والتأثير في نفوس المسلمين. ونتيجة ذلك، طفت على السطح، دراسات استشراقيّة حول القرآن الكريم، وقد غطّت موضوعات مختلفة، من المخطوطات إلى الدراسات التاريخية والمنهجيّة والتفسيريّة..إلخ. وقد نتج عن هذه الجهود الاستشراقيّة في مجال الدّراسات القرآنيّة، الوقوع في أخطاء وشبهات خطيرة تُخالف القرآن الكريم ولا تليق بمكانته. وهو ما استدعى وقفةً حازمةً من علماء الإسلام.

في هذه القراءة، نقدّم عرضًا لإحْدى الكُتب المهمّة التي حاولت مُعالجة موضوع القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، من خلال: عرض، ونقد، وتحليل، وفهرسة، نتاجاتهم العلميّة وغيرها المتعلقة بهذا الموضوع.

بطاقة تعريفية بالكتاب

- **الكتاب:** المستشرقون والدراسات القرآنيّة
- **المؤلف:** الدكتور محمد حسين علي الصغير(أستاذ الدراسات القرآنيّة والبلاغية والأستاذ المتمرس الأول في جامعة الكوفة)
- **السلسلة:** موسوعة الدراسات القرآنيّة(5)
- **الناشر:** دار المؤرخ العربي - بيروت
- **الصفحات:** 184 صفحة
- **تاريخ النشر:** ط1-1420هـ- 1999م

يقدّم المؤلف في هذا الكتاب، دارسةً تُنظّم جهود المستشرقين في الدّراسات القرآنيّة المتنوّعة، ويبحث في عطائهم الفكري، وأبرز أعمالهم، بكلّ موضوعيّة علميّة. وقد وزّع محاور الكتاب على مقدّمة ومدخل وثمانية فصول، وتوّجها بخاتمة تضمّنت أهم نتائج البحث.

وقد تضمّنت فصول الكتاب أبرز الموضوعات التي تتعلّق بالاستشراق في القرآن الكريم، وهي: تأريخ القرآن، الوحي، ترجمة القرآن، التحقيق والفهرسة والتدوين، الدراسات الموضوعية، تقويم الجهود الاستشراقية، الأبعاد الفنية لترجمة القرآن، تقديم معجم للدراسات الاستشراقية في القرآن الكريم. وهذا ما سنعرض له في الخطوات الآتية:

في التمهيد، لم يسترسل المؤلف كثيرًا في تعريف الاستشراق والمستشرقين، مكتفيًّا بتعريف موجز يُغني القارئ عن المطولات التي كُتبت في تنقيح مفهوم الاستشراق. ومن ثمّ يقدّم مجموعة من الدوافع التي جعلت المستشرقين يهتمّون بالدراسات العربية والإسلامية، ويُلخّصها في ثلاثة دوافع أساسيّة، هي: تبشيريّة واستعمارية وعلميّة.

فالتّبشير لإقناع المسلمين ببُطلان عقيدتهم وجذبهم إلى الدين المسيحي، وقد أقرّ بذلك مجموعة من المستشرقين أنفسهم، وقد أشار المؤلف لبعضهم. وأما الدوافع الاستعمارية، فتظهر من الدعم المادي اللامشروط من الحكومات الغربية للرحالة الذين أرسلتهم إلى البلدان الإسلاميّة، حيث إنّ هذه الدول عيّنت هؤلاء المستشرقين في السلك العسكري والديبلوماسي، وولُّوهم كراسي اللغات الشرقيّة وعدد من المناصب العلمية. وتعود هذه لأهميّة لما قدّمه هؤلاء المستشرقون من معلومات عن الدول التي زاروها، وما يُفيد ذلك في معرفة أدق تفاصيل تلك الدول وتسهيل غزوها.

أما الدوافع العلمية، فتظهر من اهتمام بعض المستشرقين وإعجابهم بلغة العرب والقرآن الكريم، وانجذابهم إلى الثقافة الإسلامية وحضارة المسلمين، فدأبوا على دراسة الإسلام والقرآن من منطلقات علميّة بحتة.

أوّلًا: تاريخ القرآن

إنّ البحث في تاريخ القرآن من أبرز الموضوعات التي تناولها المستشرقون، لذلك خصّص المؤلف الفصل الأول من كتابه لعرض هذه القضية، حيث أشار إلى أبرز دراسات المستشرقين، انطلاقًا من الفرنسي بوتيه (1800-1883م)، الذي لم يكن بحثه متكاملاً في الموضوعات ولا دقيقًا.

ومن ثم عرض للمستشرق الألماني جوستاف فايل (1808-1889م)، صاحب كتاب «مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن»، ثُم المستشرق نُولدكه(1836-1930م)، الذي يعدّ مرجع الدراسات القرآنية عند المستشرقين، خاصة من خلال كتابه «تأريخ القرآن»، الذي لاقى احتفاء كبيراً في الغرب به، وقد أعيدت طباعته مرات عديدة.

لذلك، نجد الدكتور محمد حسين الصغير لم يتجاوزه معاثر كتاب نُولدكه، بل أشار إلى الأخطاء التي وقع فيها، والتناقضات التي تضمّنتها أفكاره، خاصة قوله بالتحريف ونقص فقرات من القرآن. كما لم يفت المؤلف أن يعرض بعض الدراسات التي تعرّضت لنولدكه ومؤلفه بتحليل أفكاره ونقدها على ضوء البحوث الإسلاميّة الأصيلة.

وبعد نولدكه عرض المؤلف للمستشرق المجري جولدتسهير (1850-1921م)، من خلال كتابه «مذاهب في التفسير الإسلامي»، وتعرّض لأبرز مآخذه، وأهمها: قوله إنّ الاختلاف في القراءات يعود لهوى القرّاء، وتحميله القراءة ما لا تَحتمل، لأجل إثبات أنّ آيات القرآن مجرد آراء، وتشكيكه في بعض الشروحات، بأنّها تابعة للقرآن أو أنّها مجرد تفاسير، وقوله إنّ مرجع اختلاف القراءات هو الخوف من أن يُنسب إلى الله والرسول صلى الله عليه وآله بعض العبارات يلحظ فيها أصحاب وجهات النظر الخاصة مسًّا بالذات الإلهية أو بالرسول صلى الله عليه وآله.

ولم يكتفِ المؤلّف بعرض موجز لكتابات المستشرقين، بل تحدث مفصّلا عن بعض مُؤلفاتهم، مُظهرًا أهم الشبهات التي تم طرحها، ويظهر ذلك في عرضه للمستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير وكتابه «القرآن»، حيث تمّ التطرق لفصول كتابه السبعة، وإظهار أهم النقاط التي عالجها الكتاب، من قبيل: الأصل اللغوي لكلمة القرآن، والمراحل الثلاث لتدوين القرآن، والتأريخ لعملية تقسيم القرآن إلى أجزاء وسور.

وقد تناول بلاشير رسالة القرآن في مكة والمدينة، مع عرض خصوصيات كل فترة. ومن خلال ذلك، قدّم المؤلف نظرته لما طرحه بلاشير، فنقده حين يستوجب النقد وأثنى عليه في مطارح الثناء، معتبراً إنّ معالجة بلاشير لتأريخ المرحلة الإسلامية في المدينة، تكاد تكون جيدة جدًا بعرضها الموجز وكثافتها التاريخية، وتحديدها لأبرز النقاط الرئيسية التي مرّ بها النبي صلى الله عليه وآله والقرآن معًا.

وبعد أن عرض المؤلف لجزء مهم من دراسات المستشرقين في تاريخ القرآن وناقش جزءًا آخر منها، خلُص إلى القول: إنّ أثر المستشرقين في دراسة تاريخ القرآن، اتّسم بالعلميّة بشكل عام، إلاّ

بعض الأقلام التي حادت عن الموضوعية العلميّة، وأبرز من حادَ عن العلمية، الأستاذ بول الذي كتب في التحريف ونشر بحثه في دائرة المعارف الإسلامية الألمانية، حيث أثار دعاوى لم يستطع أن يدلّل على صحة واحدة منها، كما خلط خلطًا غير متناسق واكبته فيه النزعات المنحرفة. ولم يتجاوز المؤلف ادّعاءات بول بالعرض فقط، بل كتب في نقدها وبيان زيفها، وأظهر قصورًا عند هذا المستشرق في فهم بعض المصطلحات، كمصطلح النّسخ الذي فهمه بول على أنّه تحريف.

ثانيًا: المُستشرقون وظاهرة الوحي

في هذا الفصل، أسّس المؤلف - بداية- لنقطتين أساسيتين عند النبي ﷺ، وهما: مواجهة المنافقين، ومجابهة الفضوليين الذين كانوا يزاحمونه في حياته الخاصة. ونجاح النبي ﷺ في معالجة هاتين النقطتين، هو أساس تميّزه في القيادة، وقد كان ذلك بتأييد من الوحي، حيث نزلت الآيات المحذرة من المنافقين والرّادعة للفضوليين.

كما عرض المؤلف لمسألة الوحي عند النبي ﷺ، وأنها ليست من القضايا الجديدة المبتدعة، فهي سُنّة دأب عليها الأنبياء والرسل من قبله، وقدم بحثًا تأسيسيًّا في الوحي، بتقديم لمحة مختصرة ومكثفة عن الوحي وأنواعه واختلافه عن بعض المصطلحات كالإلهام والكشف. وأرفده ببعض دراسات المستشرقين الذين اهتموا بدراسة هذه الظاهرة، وحاولوا تفسيرها بأبعاد نفسيّة تارة، وفيزيولوجية تارة أخرى، مُنطلقين من بعض الصفات التي أوردتها النصوص، حيث كانت تكتنف النبي(ص) حال الوحي، فقاموا بتفسير هذه النصوص على أن النبي ﷺ كان يُصيبه الإغماء تارة والتشنّج تارة أخرى، وفسروا ذلك بالصرع، وألقوا تُهمًا وأوصاف لا تليق بالنبي ﷺ.

كما أنّها ليست من سمات الباحث الموضوعي، الذي يلتزم الحياد في بحثه. وهذا ما جعل بعض المستشرقين يردون عليه بالنقد، كونه بُني على حجج واهية لا يقبلها العقل السليم. وأبرز من فنّد هذه الأقوال - كما أشار إلى ذلك المؤلف - السير وليم موير (1819-1905م) في كتابه «حياة محمد[ص]»، والذي عبّر بصريح العبارة بأنّ تصوير ما كان يبدو على محمد(ص) ساعات الوحي على هذا النحو لخاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ. وردّ ادّعاءاتهم بشكل علمي رصين، وأوضح على سبيل المثال الحقيقة العلمية لمُصاب الصّرع، وبيّن أنّها لا يمكن إسقاطها على ما كان يُصيب النّبي حالَ الوحي.

ثمّ عرض المؤلف لمجموعة من الادّعاءات والأباطيل التي اخترعها بعض المستشرقين عن النبي والإسلام، من قبيل: أنّ النبي ساحر، وأنه لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية فاخترع دينًا جديدًا. كما فنّد هذه الادعاءات بالإشارة إلى ما قدّمه المستشرق إميل درمنجهام في ردّ أباطيل هؤلاء الدّعاة.

وفي حديث المؤلف عن المستشرقين المنصفين والمستشرقين غير المنصفين، لم يفته تقديم نوع ثالث من المستشرقين، وهو الذي يكون منصفًا في موضوعات عدّة، غير أنّه يتبنّى بعض الأفكار الغريبة التي لا تتلاءم مع منهجه الرّصين، ومن أمثال هؤلاء المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون، الذي نفى تهمة الصرع عن النبي ﷺ، غير أنّه وجّه إليه تهمة أخرى وهي الهوس، وهو أمر مُستغرب من رجل اتّسمت أبحاثه بالاعتدال والإنصاف غالبًا. وهذا النوع من المستشرقين، لعلّه أخطر من الذي يُهاجم الإسلام والقرآن بشكل مباشر وظاهر، لأنّ أسلوبه مُستقطِب في الأول، ثم يضع نتائج مخالفة للواقع، وهو بذلك يهدم ما ادّعاه أوّلا، ليثبّت ما هو أكثر سوءًا.

كما يفتتح المؤلف بحثًا توضيحيًّا في الوحي وخصائصه، يهدم به آراء المستشرقين وادّعاءاتهم، ويكفي في ذلك تبيين أن الوحي مصدره ليس ذات النبي ﷺ، ويظهر ذلك في قصص الأنبياء وغيرها من قصص الأقوام السالفة، التي لا يُمكن أن تصدر من شخص مُصاب بالصرع أو الهوس، وإنما هي دلالات على أنّ الوحي يأتيه من مصدر مُتعال محيط بمجريات العالم كلّه منذ حدوثة إلى يوم زواله. وقد أكّد ذلك المؤلف من خلال الاستدلال على أنّ الوحي يأتي من الله عز وجل، ويمرُّ بواسطة جبرائيل عليه السلام، ليصل في الأخير إلى النبي محمد ﷺ، وتعرّض بواسطة الآيات القرآنية، إلى طرق الوحي وكيفيته وأقسامه. واستدل على رجاحة عقل النبي ﷺ واتزانه، كما أبْعد الشُّبهات التي تحومُ حوله.

ثالثًا: ترجمة القرآن

لمّا كانت الترجمة بشكل عام، تحتاج إلى مواصفات خاصة جدًا في المترجم، من قبيل: مدى إتقانه للغتين المترجم منها والمترجم لها، ومدى ضبطه للقواعد ومُختلف الفنون اللغوية للغتين، بالإضافة إلى إلمامه بالموضوع الذي يعمل على ترجمته، حتى يتسنّى له تقديم ترجمة لا تخون النصّ الأصلي في أسسه ومرتكزاته على الأقل. ولمّا كانت الترجمة تحتاج إلى هذه الشروط وغيرها،

فإنّ ترجمة القرآن الكريم أكثر صعوبة، بل لعلّها مستحيلة، فإنّ كان فُصحاء العرب عجزوا عن الإتيان بمثل آياته وباللغة نفسها، فكيف بأن يقع نقل هذه الآيات وما تحويه من بلاغة وفصاحة، وما تتضمنه من معان ظاهرية وباطنية، إلى لغات أخرى هي عاجزة عن استيعاب بعض مطالب اللغة العربية، ناهيك عن آيات القرآن الكريم؟

على الرغم من ذلك، فقد تجرّأ بعض المستشرقين وقاموا بترجمة القرآن الكريم، وجاءت ترجماتهم على نحوين: ترجمة كليّة وترجمة جزئيّة، أظهرهما المؤلف في هذا الكتاب مؤسّسًا عليهما موضوع ترجمة القرآن عند المستشرقين.

ففي مجال الترجمة الكليّة، أشار المؤلف إلى بعض المستشرقين الذين حاولوا ترجمة القرآن، وانطلق ذلك أول مرة بين عامي (1141-1143م) بطلب من بطرس المُبجّل، فقام روبرت الروتيني وهرمان الدلماشي الألماني صحبة راهب إسباني عربي بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية، غير أنّها لم تكن أمينة ولا متكاملة بحسب تعبير بلاشير.

وبعد ذلك نشر المستشرق الإيطالي أريفاين أول ترجمة إلى الإيطالية، ومن ثمَّ تمَّت طباعة القرآن باللغة العربية، في أوّل نسخة تطبع في البندقية سنة 1530م، وصدرت ترجمة أخرى للقرآن سنة 1594م من طرف هنكلمان. وبعد ذلك، تمّت ترجمة القرآن إلى اللغة الألمانية من قبل شنيجر النور مبرجي سنة 1616م، ثم إلى الفرنسية سنة 1647م، ومن هذه الترجمة قام أحد قساوسة كاريسبروك بنقلها إلى اللغة الإنجليزية، لتصدر سنة 1649م.

وهكذا توالت ترجمات القرآن إلى مختلف اللغات، واختلفت في مدى دقتها، وظهر أن بعضها تهكميّة أكثر منها محاولة علمية. ومن الترجمات التي تمتاز بالدِّقة، أشار المؤلف إلى ترجمة الفرنسي إدوار مونتير، وما قيل عنها في الدّقة والضبط.

ولعلّ أهم الترجمات التي يقع الحديث عنها عادة، ترجمة بلاشير إلى اللغة الفرنسية، وهي ثلاثة أجزاء، وترجمة رودي بارت إلى الألمانية، وترجمة مارمادوك وليم بكثول إلى الإنجليزية، والتي قام بمراجعتها في مصر.

ثم توالت الترجمات إلى اللغات الأخرى: السويدية والهندية والهولندية وغيرها من اللغات. وهكذا أشار مؤلف الكتاب إلى أغلب الترجمات الكليّة مشيراً إلى خصائص أبرزها.

وأما التّرجمات الجزئيّة، فقد أشار المؤلف أيضًا إلى بعض النماذج لترجمات جزئيّة متناثرة،

كتلك التي اقتناها أندراي أكولوتوس (1654-1704م)، وهي مقتطفات من بعض السور مترجمة إلى اللغتين التركية والفارسية. أو ترجمة البركازيميرسكي البولوني إلى الفرنسيّة، وهي ترجمة تعوزها الأمانة العلمية وفهم البلاغة العربية. كما ترجم المستشرق السويدي سترستين عدة فصول من القرآن إلى اللغة الإسبانية، ونقل الدنماركي بول عدة أجزاء إلى اللغة الدنماركيّة.

وقد اكتفى المؤلف بهذا القدر من عرض الترجمات، وهو قدر كافٍ لتسليط الضوء على ظاهرة ترجمة القرآن الكريم، ويفتح الباب أمام الباحثين لدراسة هذه الترجمات وتقييمها بناء على النظرة الإسلامية الأصيلة.

رابعًا: التحقيق والفهرسة والتدوين

لقد بذل المستشرقون جهودًا مُضنية في مجالات الدراسات القرآنية، وظهر ذلك في نشر الكتب وتحقيق المصادر الباحثة في القراءة والتفسير وعلوم القرآن، وكل ما يتعلّق بالنّص القرآني. وبناء على هذه الميزة في الدراسات الاستشراقية، قام المؤلف بتخصيص فصل خاص من كتابه، عرض فيه لأهم الأعمال التي قام بها المستشرقون من تحقيق وفهرسة وتدوين.

ففي التحقيق، يُشير المؤلف إلى سبق المستشرقين الألمان في هذا المجال، حيث قرّر المجمع العلمي البافاري في ميونخ جمع المصادر الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه وضبط قراءاتها لنشرها. وتولى ذلك براجشتريسر وساعده بريستل. وكانت المهمة تصوير المصادر والمصاحف تصويرًا شمسيًّا وبنسخ متعددة لتيسير الاطلاع عليها، وتدوين كلّ آية من القرآن في لوح خاص يحوي أنواع الرسم القرآني الواردة في مختلف المصادر، مع بيان قراءاتها وتفاسيرها. ونتج هذه العملية مجموعة كبيرة من الإصدارات ذكرها المصنف في المتن(ص74). كما أشار أيضًا إلى أهم معالم النشر والتحقيق لجملة من المستشرقين من مختلف الجنسيات والهويات، وذكر قائمة للمستشرقين ونتاجاتهم(ص75).

أما في مجال فهرسة القرآن الكريم، فقد سلّط المؤلف الضوء على جملة من المحطات لهذه العمليّة، أظهر فيها أنّ هذه العلمية بدأت بشكل بدائيّ في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر مع المستشرق الإنجليزي وليم بدويل، الذي وضع فهرسًا للقرآن باللغة التركية، مع تعداد آي القرآن، وقد طُبع في ليدن 1615م.

وأما الفهرسة في إطارها العلمي المنظم، فيعود إلى أوائل القرن التاسع عشر، وتأصلت عند المستشرق الألماني جوستاف فلوجل (1802-1970م)، حينما ألّف أول معجم مفهرس للقرآن، عُني بألفاظ القرآن ومفرداته، وأسماه «نجوم الفرقان في أطراف القرآن» طُبع أول مرة سنة 1842م، وقد لاقى استحسانًا كبيرًا، حيث اعتمد عليه محمد فؤاد عبد الباقي في وضع «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم».

كما قام المستشرق الفرنسي جول لابوم، بوضع تفصيل آيات القرآن الكريم باللغة الفرنسية، وذلك بترتيب الآيات الخاصة بالموضوع الواحد، في فصل واحد، فهو قام بترتيب القرآن بحسب الموضوعات. ولمتانة هذا العمل تمت ترجمته إلى اللغة العربية، بتوجيه من صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا.

وبعد هذا العمل الكبير، ازدادت جهود المستشرقين في فهرسة ما ألّف في القرآن الكريم وقراءته، وفهرسة بعض كتب التفسير، فقام المستشرق الإنجليزي ستوري بوضع فهرس خاص بأدب القرآن في 450 صفحة، وقام براجشتريسر بوضع معجم لقراء القرآن مع تراجمهم. وصنّف بريتسل كتابًا عن مراجع القرآن وعلومه ورسالة في تأريخ علم قراءة القرآن، ويعدّ الكتابان مرجعين في فهرسة مراجع القرآن وقراءاته. ووضع المستشرق الألماني هوسلايتر فهرسًا لتفسير الطبري.

وفي مجال التدوين وحفظ النصوص، قامت مكتبة باريس الوطنية بتجميع قطع من القرآن على الورق من القرنين الثاني والثالث والرابع للهجرة. وتمت الإشارة أيضًا إلى فهرسة المخطوطات المتعلقة بالقرآن وتفاسيره وعلومه، والتي قام بها كلّ من فيراتشكوفسكي التي بحثت عن نوادر مخطوطات القرآن من القرن السادس عشر، والأستاذ كارل بروكلمان الذي لخّص بصورة إجماليّة أسماء من ألّف في القراءات، مستعينًا بما كتبه براجشتريسر في كتابه «تأريخ القرآن».

خامسًا: الدراسات الموضوعية في القرآن الكريم

عالجت بعض الدراسات الاستشراقيّة موضوعات بعينها في جزئيات مختلفة في القرآن الكريم، وتعدّ هذه المنهجية في الدراسات سليمة ومنتجة، فالبحث في جزئيّة بعينها وسبرها وإحصائها في أبحاث عدة متكافئة، يُعطي فرصة أكبر في فهم هذه الجزئية والإمعان فيها. ويرى المؤلف أنّ هذه المنهجية تتبلور قيمتها في بيان مواكبة القرآن الكريم للحياة، وتتأكد في ممازجة الهدف الديني

بالهدف الاجتماعي في القرآن، وتُبرز كذلك دور القرآن الكريم في إعطاء الحلول الإنسانيّة المناسبة للمشكلات المعاصرة في الحياة.

وقد انتهج بعض المستشرقين هذه المنهجية في البحث، فكتبوا على ضوئه مجموعة من الدراسات، مُبتعدين عن الموضوعات الصّعبة، خاصة المُتعلقة بأحكام القرآن العامة والأحوال الشخصيّة وآيات الأحكام والمواريث والعقود والحدود والديات. وقد برزت دراسات عدّة في هذا المجال، وذكر المؤلف مجموعة منها، قسّمها بحسب الموضوعات.

ففي العقائد والديانات، كتب المستشرقون عن العقائد في القرآن والتشريع في آياته، والمقارنة بين ديانة وأخرى على ضوء معطياته، أو الإشارة إلى الديانات والعقائد السابقة في محتوياته. وقد أشار المؤلف إلى مجموعة من النماذج لمجموعة من المستشرقين، من قبيل: الفرنسي جوزيف هاليفي في بحثه «السامريُّون في القرآن»، والدنماركي بدرسين في بحثه «الدليل على اليوم الآخر في القرآن»، وموضوع عيسى في القرآن لأدولف جروهمان..، وغيرها من نماذج ذكرها في(ص85).

وفي موضوع الفن القصصي في القرآن، وهو ما يتعلّق بقصص الأنبياء والأمم الغابرة وأسلوب القصة وعرضها، وأهداف القصص وثمارها. في هذا السياق، ذكر المؤلف أيضًا مجموعة من الأعمال حرّرها المستشرقون، وأبرزها: الهجادة(القصص الإسرائيلية)، وفي قصص القرآن بقلم سجبار، ومصادر القصص الإسلامية في القرآن وقصص الأنبياء لسايدر سكاي، والقصص الكتابي في القرآن لسباير وجريفنا ينخن. بل هناك من تخصّص في جزء من قصص القرآن، أبرزهم المستشرق المجري بيرنات هيللر الذي نشر: قصة أهل الكهف، وعناصر يهودية في مصطلحات القرآن الدينية، قصص القرآن.

وفي فقه اللغة العربية في القرآن، تدور بحوثه حول الاشتقاق وأصول الكلمات وبعض المصطلحات والمفردات واللهجات في القرآن. وقد أشار المؤلف إلى جملة من المؤلفات في هذا الصدد، منها: ما كتبه المستشرق النمساوي فرانكلين فوللیرس حول القرآن بلهجة مكة الشّعبية، وكتب المستشرق الألماني كارل هنريخ بيكر موضوعًا بعنوان: « قواعد لغة القرآن في دراسات نولدكه»، و»نصوص القرآن» للأستاذ مرجليوت.. وغيرها من العناوين(ص87-88).

أما في موضوع بلاغة القرآن، الذي يتناول بعض السمات البلاغية والمظاهر الإعجازية للقرآن الكريم، فقد أشار المؤلف لبعض هذه البحوث وكُتّابها، من قبيل: «بيان القرآن» لستانتون، و»سحر

الآيات القرآنية» لكريستنس، و»الإعجاز في القرآن» لروبنسون،...إلخ. كما تمّت الإشارة إلى بحوث أخرى في القرآن الكريم، تدور حول علاقة القرآن بالإنسان والكون والحياة والطب والفلسفة... إلخ.(الصفحات: 89-90-91).

سادسًا: تقويم الجهود الاستشراقية في الدراسات القرآنية

في هذا الفصل، يُقدّم الدكتور محمد حسين الصغير نقدًا منهجيًّا لجهود المستشرقين، عبر تسليط الضوء على أبرزها شيوعًا، وألمعها في الميدان انتشارًا. ويُشير إلى الازدواجية في هذه الجهود، فالجهد الكبير المنصب على تأريخ القرآن يُهمل بلاغة القرآن، ورغم ما أُلّف في علوم القرآن ومعانيه وقراءاته وتفاسيره إلا أنّ الغلط يكتنف هذه الموضوعات ويظهر التعصّب في كثير منها من دون مبرّر علميّ. كما أنّهم اهتموا في بعض المطارح بجزئيات لا تهم المسلمين، وفي المقابل أهملوا موضوعات رئيسة.

تختلف منهجية البحث عند المستشرقين عما هي عند المسلمين، فالدراسات البلوغرافية هدف مركزي لديهم، وكذلك ضبط الوقائع التاريخية واختلاف القراءات والوحي، إلا أنّ نواحي الإعجاز وقضايا البلاغة هي شؤون عربية لا يُحسنها غير العربي الأصيل، وجرس الألفاظ لا تعيها إلا أذن عربية بدوية، وهكذا موضوعات عدّة، أشار لها المؤلف لا يُتقنها ولا يفهمها غير المسلم.

وهذا الفرق بين الفهم الاستشراقي والفهم الإسلامي للقرآن الكريم، يطرح تساؤلات حول كثرة المواضيع المبحوثة ومدى دقّتها واستجابتها لمناهج البحث العلمي الموضوعي. ويطرح المؤلف بعض التناقضات التي وقع فيها المستشرقون. فمن ناحية نجدهم موضوعيين في دراسة موضوع حسّاس، وفي المُقابل قد يسقطون في أخطاء فاحشة لا مبرّر لها.

فهذا غوستاف لوبون، وبعد أن يُشيد بالقرآن الكريم وموضوعاته المهمة، ويُخالف الكثيرين الذي ادّعوا انتشار القرآن بالسيف، نجده يسقط في قضية مسلمة عند المسلمين وهي نظم القرآن وتركيبه وحسن تأليفه، فيقول إنّ القرآن قليل الارتباط وخاليّ من الترتيب وفاقدًا للسياق. ويُرجع المؤلف سبب هذا الخطأ من لوبون إلى جهله غير المتعمد بكنه النظم القرآني، وارتباط الآية بما قبلها وبعدها، وانتهاء الموضوع للبدء في آخر.

ويُشير المؤلف إلى إبداعات بعض المستشرقين في دراستهم للقرآن الكريم، من قبيل نولدكه

وبلاشير، ويقول بأن الفهم المتفاوت عند المستشرقين يعود إلى العنصر النفسي الغالب على شخصية كل منهم، فنظرتهم للقرآن غير نظرتهم للتوراة والإنجيل، كما أنّ منهم من تتحكّم فيه ظروف نفسية واقتصادية واجتماعية، وقد يؤدي ذلك إلى نزعات عدائية أو تبشيرية، وقد انعكس ذلك كله في بحوثهم، بين الموضوعية والتعصب والافتراء والتبشير.

فهذه لمحة مختصرة عن طبيعة الفهم الاستشراقي للقرآن الكريم أوردها المؤلف، قد تُبرّر للبعض أخطاءهم كما تُدين افتراءات البعض الآخر.

وإذا كان من مقتضيات النقد المنهجي الموضوعي الإشادة بالأعمال العلمية الموضوعية النافعة، فهذا ما قام به المؤلف في مبحث التوثيق من ينابيعه الأولى، حيث أشار إلى الدِّقة والضبط اللَّذَين يُشكلان الركن الأساسي للجهد الاستشراقي، وظهر ذلك في عنايتهم الفائقة بأصول القرآن، تدوينًا وكتابةً وفهرسةً وتحقيقًا ونشرًا وترجمة وتعقيبًا.

وقد تمّت الإشارة إلى جهود المجمع العلمي البافاري في ميونخ، ممثلاً في براجشتراسر ومن بعده بريتزل الذي تواصل مع المجمع العلمي العربي بدمشق ليخبرهم عن مشروعهم في تدوين كلّ آية من القرآن الكريم في لوح خاص، يحوي مختلف الرسم المثبت في مختلف المصاحف مع بيان القراءات المختلفة. بل استمر بريتزيل في التأليف حول القرآن الكريم، وأصدر رسالة فريدة في تأريخ علم القرآن باللغة الألمانية.

بل ازداد الاهتمام بالقرآن وبالمؤلفات العربية حوله، فصدرت تحقيقات حول أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوي، والكشاف للزمخشري، والاتقان للسيوطي.. وغيرها، أشار لها المؤلف. وألف جوستاف فلوجل أول معجم مفهرس للقرآن في اللغة العربية، ومن بعده صدر دليل القرآن للألماني ماليز، كما أبدع الفرنسي جول لابوم في وضع تفصيل آيات القرآن الكريم باللغة الفرنسية، رتّب فيه الآيات بحسب الموضوع.

وعلى هذا المنوال، رَصَد المؤلف مجموعة ضخمة من أعمال المستشرقين القيّمة وعرضها وأشاد بها. وتعرّض إلى أحد أهم أهداف المستشرقين في دراسة القرآن، وهي استقراء المجهول، واستكشاف الحقائق، وهذا أمر علمي سواء أصابوا الهدف أم أخطأوه.

سابعًا: الأبعاد الفنية لترجمة القرآن ومشكلاتها البلاغية عند المستشرقين

يتحدث المؤلف في هذا الفصل عن قضيتين أساسيتين تتعلقان بأبعاد ترجمة القرآن الفنية

ومشكلاتها البلاغية، حيث يتعرّض إلى بعض الأبعاد الفنيّة للترجمة القرآنية، خاصة فيما يتعلّق بأقسام الترجمة وأجزائها والضروري من آدابها وشروطها، وأهميتها وقيمتها الفنية.

كما يتعرّض إلى مجموعة من المشكلات البلاغيّة التي تعترض سبيل الترجمة القرآنية في اللفظ والمعنى والنظم القرآني، والكشف عن مواطنها والتعقيب على مصاعبها، مستنتجًا من كل ما طرحه، استحالة ترجمة القرآن الكريم ومعانيه، لذلك، ينبغي أن تُسمّى تلك الترجمات، ترجمة مفاهيم القرآن، لأنّ القرآن متعبد بتلاوته في لغته نصًّا، ما يجعل أيّة ترجمة له خارجة عنه.

ويقّدم مُؤلف تحقيقًا في مفهوم الترجمة، ويتبنى تعريفًا لها يؤكد على أنّ المحاولات التي طُرحت في ترجمة القرآن، لا يُمكن أن تكون ترجمة فعلية له، وإنّما هي مجرد ترجمة لبعض مفاهيمه، لا نصّه المُتضمن لمعان إعجازية وبلاغية، لا يُمكن دركها إلا بلغته التي نزل بها.

وبعد أن يعرض المؤلف للفروقات بين ترجمة الألفاظ وترجمة المعاني، يقول إنّ أغلب ترجمات المستشرقين هي ترجمات للمعاني في أحسن الأحوال، لأنّ الترجمة الحرفية مستحيلة فنيًّا وبلاغيًّا، بل يقرّ الباحث بأنّ هذا اللون من الترجمة مستحيل عقلاً، لبلاغة القرآن في مفرداته وجمله وتراكيبه ونظمه وأسلوبه وسياقه...إلخ.

وعلى الرغم من استحالة الترجمة اللفظية للقرآن الكريم، إلا أنّ المؤلف يتبنّى ضرورة ترجمة القرآن بشكل يُقرِّب لغير العربي مفاهيمه، كون القرآن رسالة للناس كافة. وقد استدل على ذلك بأقوال بعض الفقهاء، ولكن، أشار إلى شروط يجب توافرها في ترجمة القرآن لفهمه، وهي: توافر الظهور اللفظي الذي تفهمه العرب، وحُكم العقل الفطري السليم، وما جاء من المعصوم في تفسيره.

وبناء عليه، استوجب إحاطة المترجم بكل ذلك، لينقل معنى القرآن إلى لغة أخرى. فإن توفرت هذه الشروط، تكون الترجمة قد نقلت حقائق القرآن ومفاهيمه إلى كل قوم بلغتهم، ولكن ألفاظ القرآن وتراكيبه تبقى ترجمتها مستحيلة.

وأما المشكلات البلاغيّة، فهي تطغى على النصوص العادية ناهيك عن ترجمة القرآن الكريم، لذلك، كان لا بدّ للمترجم أن يكون مُتمكنا من اللغة التي يُترجم منها واللغة التي يُترجم لها، كما يجب أن يتحلّى بالأمانة والإخلاص في نقل النّص ويتحرّى الصّواب، دون أن يتأثر بأفكار خارجية أو مذاهب أخرى، فيقوم بإسقاط ما تقول به تلك المذاهب على ترجمته.

وحتّى مع إخلاص المترجم وأمانته وإتقانه للغات، فهناك مشكلات أخرى تعترضه، منها: اختلاف نظام الجملة من لغة لأخرى، وجمال الألفاظ وجرسها، ودلالة الكلمات وحدود معانيها. وهذه المشكلات كثيراً ما تواجه المترجم في النصوص الاعتيادية وتزيد صعوبتها في النصوص الأدبية، كون الآداب تعتمد على التصوير والعاطفة والانفعال، بالإضافة إلى الأفكار المطروحة. وإن كانت هذه المشاكل واقعة لا محالة في مختلف النصوص، فإنّها تظهر بشكل أكبر وجليٍّ في ترجمة القرآن الكريم، لأنّ للقرآن الكريم ميزات لا نجدها في أي نصّ آخر من أيّ نوع كان، ومن هذه الميزات: أن ألفاظ القرآن تُحمل على معان متعدّدة وتفاسير متعددة، وأن القرآن يعدّ منتجًا لأساليب تعبيرية جديدة كانت مصدرًا جديدًا للتراث في اللغة والبيان، كما أن القرآن يُعدّ موسوعة متكاملة إذ طرح موضوعات مختلفة لا قبل للمترجمين باستيعابها.

وقدّم المؤلّف النقاط الرئيسية في المشكلات البلاغيّة، ووزّعها على ثلاث نقاط، وهي: دلالة الألفاظ، والتركيب الجُملي، والنظم والسياق القرآني. وقد أورد نماذج لكل نقطة من هذه النقاط مع التعليق عليها وسَبْرْ أغوارها.

ويخلُص في الأخير إلى القول، بإمكانيّة ترجمة مفاهيم القرآن الكريم وتعاليمه، من قِبل الأيدي الأمينة خدمة لرسالة القرآن الإنسانيّة، فإنّ ترجمة مفاهيمه قد تحقّق الغرض الديني وإن فات الغرض الفني.

وفي الفصل الثامن والأخير من الكتاب، يورد الدكتور محمد حسين الصغير معجمًا للدراسات الاستشراقيّة للقرآن الكريم، يمكّن الباحثين والمهتمين في هذا المجال من ثروة علمية قيّمة يمكن الاستفادة منها في التأسيس لفهم معمّق للاستشراق والمستشرقين الذي اهتموا بالقرآن الكريم، كما يفتح المجال لبحوث علمية تحليلية ونقدية تطال هذا المجال.